الازياء النسائية

نبذة تاريخية اجتماعية

***

الازياء النسائية ! ما اكثر عشاقها وأثقل اوزارها ! ما أحسن الجميل منها ، واسخف السخيف فيها ! ما أعظم سلطانها وأقوى نفوذها ! هي خير معبود تسجد له الامرأة العصرية المتمدنة وتخضع له خضوعاً أعمى . هي صارمة كالنظام الحربي ، فالنساء لا يجسرن عَلَى مخالفتها ، وان كنَّ لم يحلفنَ لها يمين الطاعة .

اصبحت الازياء النسائية وبالدارج « الموضة » — قسماً من حياتنا الاجتماعية لا غنى لنا عنه في هذه الايام ، واصبح المرء يشعر بسلطان «الموضة» بكل حواسه ، فهو يراها أنى سار — في الشوارع ، في البيوت ، في نوافذ الحوانيت ، واذا اصغى الى حديث النساء اينما كان وجد اكثره يتعلق « بالموضة » ووصاياها ومحدثاتها . فهذه تقول « تلك الموضة قد بطلت » وتلك تقول « هذه موضة دارجة اليوم . الكل يلبسونها » — ومتى قيل « الكل » فاعلم ان هذه الكلمة سحرية يخضع لها جمهور النساء دون معارضة — والاخرى تحدث رفيقاتها بما لبسته هند في الحفلة ، وما اظهرته سعاد من قلة الذوق بلبسها ثياباً من زي السنة الماضية ، وما اقتبسته دعد عن الازياء الاخيرة في باريس ، وما اشبه ...

للموضة تاريخ يرافق تاريخ العمران ، فهو يبتدىء باوراق التين في الفردوس وبجلود الحيوانات في العصر الصواني ويتدرج مع تقدم الانسان في معارج التمدن متنوعاً بازيائه الغريبة ، المدهشة في بعض احوالها ، المضحكة في بعض اطوارها ، السخيفة في بعض مناظرها . من هذه المناظر الاخيرة ان « الموضة » في بعض العصور كانت ان تعلق الامرأة في عنقها قلادة من الاجراس الصغيرة وتلبس ثوباً يتدلى اسفل اكمامه الى الارض ، فكانت اذا مشت دقت الاجراس وكنست اكمامها الارض . وفي عصر آخر كانت « موضة » الرأس ان يزان بضفائر موءلفة من الشريط النحاسي وشعر الخيل عَلَى اشكال شتى ، فكانت النسآء يتخطرنَ وعَلَى روءوسهن شبه قوارب وزنابيل وقصاع من شعور البراذين .

قبل الثورة الافرنسية لم تكن « الموضة » تتغير الا قليلاً وذلك مرة كل مائة عام . فلما سقطت الملكية في فرنسا حدث انقلاب عظيم في « الموضة » شبيه بالانقلاب السياسي ، فتمردت النساء عَلَى الازياء القديمة وطرحنَ الفساطين المقببة وأطرها والرفادات والحشايا واستبدلنها بالاثواب اليونانية ، ثم أخذنَ يتجردنَ شيئاً فشيئاً فابدلنَ الاقمشة الغليظة باقمشة رفيعة النسج . ونبذنَ كل ما لا لزوم له من الملابس وبرزنَ للناس في غلائل شفافة تضاف اليها احياناً عمامة من الشال الكشميري يزدان بها الرأس . وهذا الزي الاخير (اي العمامة) جاء به نابوليون من مصر مع انواع الشال الشرقي فكان لها رواج عظيم في فرنسا . وصارت النساء عَلَى ما وصفنا ، يجلن في الشوارع

متعممات كالاعراب ، شبه عاريات حتى ان الناظر اليهن يخالهن جالسات في الحمام ·

وعم حينئذٍ ظهور النساء في الحفلات الرسمية بالاثواب اليونانية والاردية المطرزة الرومانية والاحذية اليونانية التي اطلقت الرجل من قيود الاحذية الضيقة · عَلَى ان هذه الحرية في الملابس لم تدم بل ما لبثت ان عقبها دور ارتجاع عاد بالازياء الى طور التضييق عَلَى الاجسام وتقييد الحركات بكل ما هو سخيف وغير ملائم ·

ومن الممكن ان هذا التغيير السريع نتج عن تجاوز كثير من السيدات حد اللياقة وفي طليعتهن فريق من مروجات الازياء وعابداتها · فهؤلاء كن يطرحن الحياء جانباً ويظهرن في المجتمعات والمتنزهات عاريات تقريباً لا يستر اجسامهن الا غلائل رفيعة ، مجردات كل ما يمكن تجريده من المعاري ·

هذا التطوح أثار اخيراً اشمئزاز الجمهور فأدى ذلك الى صدمة عادت بالازياء المطلقة الى الوراء وجاء دور ارتجاع عاد بالنساء الى تثقيل أجسامهن بما لا تقوى عَلَى حمله من الملابس · فلم يدم عهد الملابس المطلقة الخفيفة سوى اربعة اعوام بين سنة ١٧٩٥ وسنة ١٧٩٩

ودخلت في تلك الاثناء اشياء غريبة عَلَى الازياء · منها ما ادخلته جوزفين بوهارني قرينة نابوليون الخلاسية الاصل من ترصيع الثياب بكثير من الحجارة الكريمة ·

وهكذا تدرجت « الموضة » من الثياب النزرة التي لم تكن تكفي لستر جسم الامرأة الى الثياب الضافية الكثيرة · فزادت كمية القماش التي كانت السيدة تستعملها لثيابها · واضيفت رفارف عديدة الى الاثواب النسائية من المنطقة فنازلاً · ثم اخذ حجم الثياب يتسع في الاسفل حتى أعيد استعمال الفساطين المقببة نما فيها من الاطر الحديدية · وعمت القبعات الكبيرة فاشبهت بكبرها سقوف العربات · واصبحت الامرأة ضخمة المنظر واسعة الحجم بفضل ثيابها لا تسعها العربة ولا يستطيع احد مناجاتها بامر الا اذا سمعه كل الحاضرين ·

وكانت الامرأة تحتمل اثقال هذه الازياء السخيفة بصبر · فكانت تصبر عَلَى ثقل الاطر الحديدية الواسعة في الثياب المقببة دون تذمر ، بل لو قيل لها في تلك الايام أن تطرحها جانباً وتتخذ لها ثياباً كاثواب النساء اليوم لعدّت ذلك جنوناً ·

وما اكثر ما تحملته الامرأة لاجل « الموضة » في اوقات مختلفة ! فقد كان زمن به استعاضت عن شعرها الاصلي بشعور الخيل أو بشعر مستعار لا يُعلم أهو شعر ميت ، أو شعر انسان مصاب بداء وبيل معدٍ · وكان زمن به اتخذت لها ناصية كنواصي الخيل فأكسبت وجهها هيئة حيوانية · وأولعت في ازمنة شتى باستعمال المرافد المحشوة بالقطن أو بالشعر للاوراك احياناً وللبطن تارةً ، واتخذت الحشايا للجوانب والاكتاف · هذا ما عدا المشد الذي رافق الامرأة زمناً طويلاً في تاريخ ازيائها ولا يزال حتى الان

من اعظم آفاتها ·

تقلب المشد في تاريخه تقلبات شتى ، فكان حجمه يختلف حسبما تقتضي الازياء ، فكان طوراً يتضاءل حتى يصير منطقة صغيرة من المطاط قليل اضرارها بالجسم ، وتارة يعظم حتى يضغط عَلَى صدر الامرأة وخاصرتيها وبطنها فتشبه فارساً من فرسان العصور الوسطى المظلمة متسربلاً بالدروع الحديدية ·

بعد الفساطين المقببة اتجهت « الموضة » الى ما يعاكس ذلك ، فاخذت الفساطين النسائية تصغر حجماً حتى بلغت منذ عهد قريب منتهى الضيق عند الرجلين · فظلت الامرأة زمناً تمشي كأنها مقيدة · وبعد أن كانت تكنس الارض باذيالها لطول اثوابها صدر أمر « الموضة » بتقصيرها فكادت ان تبلغ حد الركب ·

والامرأة اليوم تضمر نفسها لتظهر نحيفة القد بحكم « الموضة » الدارجة · وما اكثر ما تعانيه الامرأة السمينة اليوم في هذا السبيل ، فهي لا تدع علاجاً دون ان تستعمله لتضعف ، وتواظب عَلَى الصوم وشرب المياه المعدنية والادوية المضرة · ومنتهى آمالها ان تصبح ضئيلة القامة كالقصبة التي تحركها الريح لتجاري رفيقاتها في مضمار « الموضة »

لاجل من تتحمل المرأة ما تتحمله في سبيل « الموضة » ؟ ولاجل من تتزين وتهندم ذاتها حسب وصايا الازياء الاخيرة ؟ قد تفعل ذلك لاجتذاب انظار الرجال اليها حين تتوخى ذلك · عَلَى ان الارجح انها تفعل ما تفعله

لان سواها من النســاء يفعلنه ، لان « الكل » يسخرن على عادة « الموضة » باندفاع واستسلام لا يدع سبيلاً لتحكيم الادراك .

اما الرجال ولا سيما الازواج منهم ، فلا تهمهم « الموضة » الا من جهة واحدة — من جهة جيوبهم . فالموضة لا تبقي على دخلهم مهما كان كبيراً . وطالما قادت الامرأة المستسلمة الى « الموضة » زوجها الى الخراب . وطالما اضطر الزوج المسكين لاجل زوجته ان يقامر في البورصة او أن يخالف القوانين ، فيقبل رشوة — مثلاً — اذا كان موظفاً في دوائر الحكومة ، أو يختلس اموال الشركة التي يخدمها ، وقد تدفعه الحال احياناً الى ارتكاب جريمة . ومن يعلم أن ثمن القبعة من الزي الاخير يكلف احياناً قيمة يستطيع المرء ان يشتري بها عربة بجوادها ، وأن المشد الجيد الذي لا بدَّ للامرأة منه ليضغط اعضاءها ويبرز محاسن قامتها يكلف الرجل راتبه الشهري ، وان ثمن فستان من الازياء الاخيرة يعادل أجرة المنزل لا يعجب مما تقود اليه « الموضه » من النتائج السيئة ، الادبية والمادية .

وماذا يستطيع الرجال فعله امام حكم « الموضة » الصارم ؟ هل لهم الا ان يذعنوا صاغرين معللين انفسهم باقتراب زمن تثور به النساء العاقلات على « الموضة » ويطرحن احكامها السخيفة ويتخلصن من تقلباتها السريعة ويقنعن بثياب موافقة للذوق والصحة لا تتغير اشكالها كل فصل أو كل عام . وربَّ كثيرين من الظرفاء المتزوجين يعاتبون البارىء لخلقه للامرأة جسماً غير مكسو بشعر كثيف يغنيها عن ازياء اللباس المختلفة ويغنيهم عن

الاهتمام بحساب الخياطة ولائحة بائع البرانيط ·

كثرت في الزمن الاخير الحركات النسائية ولا سيما في انكلترا واميركا حيث قامت الامرأة تطالب الرجل بحقوقها السياسية وتطلب اشراكها في التصويت ووظائف الحكومة ، وتريد نقض ما حكمت به عليها الاجيال السابقة من الخضوع · ولكنا في كل مطامح الامرأة المتهذبة لم نجد اثراً لمطمح التخلص من ربقة « الموضة » · فالامرأة تتطلب طرح نير العادات والشرائع السياسية عنها ولا تسعى لطرح نير الازياء · ونرى المترجلات الانكليزيات المطالبات بالتصويت يردن قلب نظام الحكومة ولكنهن في الوقت عينه يلبسن بموجب « الموضة » ويخضعن لحكم الازياء الصادرة عن رجال يديرون دفتها في باريس ·

ولزيادة الفائدة نختتم هذا البحث بحديث للمصور الشهير باكست الذي كان لفنه تأثير شديد في عالم الازياء · قال —

« الازياء النسائية ، أو فن اللباس أمر ليس عرضياً أو مخترعاً بطريق الصدفة ، بل بعكس ذلك هو كباقي الفنون الجميلة أمر منطيقي لا بد منه· فالموضة لا يخترعها افراد ، بل تنشأ من تلقاء نفسها مدفوعة بروح العصر

قبل القرن التاسع عشر كانت الازياء تنمو وتتعاقب على طريقة منطيقية دون رجوع الى القديم· غير انه في بدء القرن التاسع عشر نشأ الزي المعروف « بزي الامبراطورية » · وما هو سوى عودة الى الازياء القديمة · فظل مسيطراً نحو عشرين عاماً · ومنه تفرقت فيما بعد ازياء شتى معروفة بازياء

سنة الثلاثين والستين ٠

ولما جآء القرن العشرون دخلت « الموضة » في طور اختلاط وهرج ومرج ، فاخذت الازياء تتبدل كل اربعة اعوام أو خمسة ٠ وشعر الناس بحينونة زمن التطلب والتفتيش عن زي يوافق روح العصر ٠

اما الان فعالم الازياء منقسم الى مذهبين — مذهب العودة الى القديم ، والمذهب الحديث ٠ توءيد الاول فرقة تذهب الى ارجاع الازياء القديمة الى الاستعمال ، فكأنهم بذلك يقرون بعجزهم عن اختراع شيء جديد ، وقد هموا منذ عهد قريب بارجاع الثياب المقببة ٠ وهو امر سخيف ، لا يوافق الذوق ، يعترضه كثير من الصعوبات ٠ وهل تستطيع السيدة المرتدية ثياباً من هذا النوع ان تشعر براحة في مركبات الترامواي او الاوتوموبيل ٠ اما مناصرو المذهب الحديث فهم يسعون لايجاد ثياب ملائمة لروح العصر ، موافقة للذوق ، وأول شروطها ان تكون مريحة تسهل للابستها كل حركة كالركض والرقص والمشي والرياضة ٠ وان ثياباً كهذه لضرورية تحتاجها امرأة هذا العصر — عصر الاوتوموبيل والطيارات ، ولا غنى للامرأة عنها ، ولا سيما بعد ان اصبحت تجاري الرجل في اشغاله ، وتدأب مثله عَلَى العمل لتحصل خبزها بعرق جبينها ٠ أجل ان سيدات هذا العصر لفي حاجة الى ثياب لا تعيق حركاتهن ٠ وليس من يعارضني في ضرورة ايجاد هذه الثياب

اما لباس المستقبل فلست لاستطيع الجزم بما سوف تكون عليه ٠ ولكني ارجح ان ثياب الامرأة والرجل ستكون في الآتي متشابهة ٠ وسنعود من

هذا القبيل الى حيث أتينا . فكما كانت الثياب في عصر اليونان الاقدمين متشابهة للرجال والنساء ، كذا سيصير بنا في المستقبل . ومن يعش يرَ »

الريش الجميل يجمل الطائر جميلاً .

(مثل قديم)

الجمال أحسن ما يكون لابسه اذا ابتزت عنه الملابس .

(فلتشر)

لبسنَ الوشي لا متجملات ولكن كي يصنَ به الجمالا
وضفرنَ الضفائر لا لحسن ولكن خفنَ في الشعرِ الضلالا

(المتنبي)

من الناس من يبيت على الطوى ويجوع أهله معه ليتمكن من تزيين ظهره باثواب فاخرة . ولله در من قال — ان الديباج والارجوان والمخمل تطفىء نار المطبخ .

(بنيامين فرانكلن)